# ضرب الأمثال والمجاز
# في كتابات سعيد النورسي

**أ. د. جيـــن ســـمث[Ψ]**

يتميز النورسي باستخدامه كلا من القلب والعقل والخيال والفكر في كتاباته. وتعـــد هذه الميزة، أي قدرته على التعبير بكلمات صريحة ولكن ثرية من حيث قوتها الرمزيـــة والدلالية، من العوامل التي أدامت أثره طوال القرن العشرين إلى يومنا هذا، بحيث مازال يعتبر من كبار دعاة الإسلام ومفسري القرآن. فالذي يقرأ رسائل النور يحس بنار الشوق التي تحرق في قلب النورسي، ويفهم تعليماته، ويتذوق الحقيقة مثله من خلال تصويرات وعبارات حية بل ودهاشة أحيانا. ولما كان النورسي مفسرا للقرآن فهو بطبيعة الحـــال يريد أن يبين أغمض المسائل القرآنية إلى أبسط الناس، فأصبحت الرسائل تزخر بشـــتى أنواع التمثيل و المجاز والحكايات التمثيلية.

تقول مترجمة حياة النورسي، السيدة شكران واحدة " إن هذه التمثـــيلات تجلـــب وتشد أنظار القراء، كما أنها في الوقت نفسه تيسر لهم فهم أمور لم تكـــن لتستســـغيها عقولهم. وهذه الميزة سبب هام في انتشار رسائل النور وانتصاراتها المتتاليـــة في حقـــل الدعوة ".

تعتبر التمثيلات والصور التي يرسمها النورسي وهو يصف الحياة والموت والقبر ومـــا بعده في نظرنا من أقوى وجوه التمثيل والتشبيه التي يمكن للقارئ أن يعثـــر عليهـــا في الرسائل. بيد أن كلمة " يصف " في هذا المقام لا تعكس تعاليم النورسي حول هـــذه القضايا المصيرية كما ينبغي. ذلك أن همّ النورسي ليس هو وصف الموت أو البرزخ أو القيامة على الطراز الذي نجده في الكتب الإسلامية التي تناولت هذه المواضـــيع ســـواء كانت القديمة منها أم الحديثة. ولا هو يكترث بأن يصف لنا أحوال الحشر والقيامـــة، تلك الأحداث الهائلة التي يكرر ذكرها القرآن، كما هي موصوفة في كتاب الله، رغم أن ذلك الكتاب كان سلوانه الوحيد، لم يتخذ أستاذا غيره و لم يعتمد في برهانه على شيء

---

Ψ استاذة في جامعة هارفورد بأمريكا.

ما عدا آياته. كان دأبه في الوصف دأب كتّاب العصر الحديث الـذين ركـزوا علـى الأخلاق والإيمان، و لم يبالوا بتفاصيل وجزئيات أطوار الحياة والموت.

لكن اعتماد النورسي في هذا الصدد على تمثيلات تشير إلى حالات روحية ونفسية، عوض أن تشير إلى حقائق خارجية جعله ينفرد بأسلوب يميزه عن معظم معاصريه.

كانت ومازالت التشبيهات والتعابير المجازية إلى يومنا من الإجراءات المتبعة في الوعظ منذ قديم الزمان، والعهد القديم من الكتاب المقدس بما يحتوي عليه من ضرب الأمثـال أحسن دليل على ذلك. فإذا كنا نريد أن نكشف عن سر قوة التمثيلات عند النورسـي يجب علينا أن ندرك بأن النورسي إنما يتبين هذا الأسلوب لأغراض تعليمية، تهـدف إلى الوعظ لا الوصف. وأكثر ما يهدف إليه هذا الوعظ هو: مقابلة الكفر بالإيمان ثم إظهار الفرق والتغاير بين تجربة الكافر وتجربة المؤمن في هذا الوجود.

قد يجد القارئ أن بعض هذه التشبيهات والتمثيلات تتكرر في مواقع كـثيرة بينمـا يتكرر لا البعض الآخر إلا قليلا. والنورسي يعترف بأن تأليفاته كتبت بسـرعة بحيـث كانت ترد إلى قلبه " كاللمعات " لكننا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن حجم كليات رسائل النور ليس بضئيل وأن النورسي كان يكتب لمخاطبين شتى وفقا لاخـتلاف طبقـاتهم ومستوياتهم، يتيسر لنا فهم سبب تكرار مباحث الموت والقبر في كتاباته.

و لم يكن للنورسي أن يختار الأسلوب ولا الظروف التي يكتب فيها، وهو يعترف بأن تأليفاته كتبت بسرعة، وأنها كانت ترد على قلبه كاللمعات الخاطفة. فلو أخذنا مثـالا السرعة التي كتبت فيها رسالة المرضى، والظروف المزعجة التي كتبـت فيهـا رسـالة الشيوخ لما عاتب الواحد منا النورسي على هذه التكرارات. سبق أن قلنا بأن ما تميز به النورسي هو تمكنه من المقايسة الصائبة بين تجربة الكافر وتجربة المؤمن بحيث لا يصـعب علينا أن نرى بوضوح الفرق والتباين في فكر النورسي بين الإنسان المـؤمن والإنسـان الذي لا يؤمن إلا قليلا، أو الذي يكاد سلوكه ينافي مقتضيات الإيمان والدين تماما. لـذا قليلا جدا ما تراه يدع حظا لوجه التشابه بين الناس حين يصف الموت والقبر لأنه كان يؤمن إيمانا جازما بأن مفهومنا لتلك الحالتين يتفاوت ويتغاير حسب درجـة اعتقادنـا وإيماننا بالله وإخلاصنا له. ويجدر بنا أن نشير هنا بأن النورسي كان على وعي بمعضلات الحياة الدينية كما كان يدرك أسرارها، فهو بهذه المقايسات بين الإيمان وضده لا يصـر بأنه يسعنا أن نقسم المشاعر والنوايا الإنسانية إلي قبيح وحسن كما تقسم الغرفة بفاصل. إن النورسي يعترف بأن الأمر ليس بهذه البساطة إذ يعلمنا بأنه هو نفسه قـد فشـل في إقامة بعض تعاليم القرآن على الوجه المطلوب في مناسبات عديدة. بل وحتى وصل بـه

الأمر إلى أن يصف نفسه بالمذنب، المكفّن داخل قبره راجيا رحمة ربه.

إن ما يجعلنا ننجذب إلى كتابات النورسي ليس هو التزامه وتعهده برسالاته فقط، بل محاورته نفسه فيها كأن إلحاحاتها تخصه هو بالدرجة الأولى. وفعلا أن الواحد منا وهو يقرأ للنورسي حين يتكلم عن تقدم سنه وعن الموت الذي ينتظره ليحسّ بأنه ينصت للنورسي وهو يخاطب نفسه. نعم، لقد كان النورسي يدرك بأن الموت بطبيعته شيء مرعب يذعر البشرية بأكملها، لذا لم يتقزز من أن يرشّح نفسه مع الذين يحتاجون إلى السلوان أمام وجه الموت المخيف و مع من هم في حاجة ماسة أن يقنعوا بوجهه الحسن الباعث على الأمل.

يزخر التراث الإسلامي بالكتب التي تبحث في أمور الآخرة والحشر. وكثير منها تلك التي تصف تفاصيل وجزئيات أطوار الموت وما بعد الموت إلى يوم الحشر، تبين فيها كيف أن كلا من تلك الأطوار يعكس نتائج ما قدمه شخصا ما وهو في الحياة من جهة، وتنبئ عما سيكون عليه ذلك الشخص يوم الحساب من جهة أخرى. يختلف النورسي عن هؤلاء في تصويره لهذه المسائل لأنه كان يؤمن بأن أطوار وأحوال الموت والقبر كما سبقنا وأن قلنا، تتعلق مباشرة بعقيدة الناس ودرجة قوة إيمانهم. فبينما هي تبدو مناظر مخيفة وموحشة، فإنها تبدو لصاحب الإيمان وكأنها جنان ترحب.

**الحيوانات في تمثيلات النورسي:**

قد يتعسر علينا أن نفرز التشبيهات والتعبيرات المجازية التي تدور حول مبحث الموت والحياة إلى أقسام وأصناف متباينة في كتابات النورسي، إلا أنه يمكن لقارئ رسائل النور أن يلاحظ فيما بينها بعض النقاط والمباحث المشتركة. من بين هؤلاء نذكر تلك التمثيلات التي تستخدم الحيوانات والوحوش والتي كثر استعمالها في كتاب "الكلمات". فعند حديثه حول طلسم الإيمان بالله وطلسم الإيمان بالآخرة في حكاية تمثيلية، يستخدم النورسي صورة الفرس: " نعم، إن الموت بهذا الطلسم القدسي يلبس صورة فرس مسخر... يخرج الإنسان المؤمن من سجن الدنيا إلى روضة الجنان، إلى روضة الرحمن ذي الجلال". وفي أماكن أخرى يشبه الموت بالأسد الذي ينقلب إلى حصان مسخر وإلى خادم مؤنس يتنقل به أهل الهداية. فرمز الفرس، تلك المطية الطيبة، صورة إيجابية بينما الأسد عكس ذلك. وهكذا يجد قارئ رسائل النور أن الحيوانات التي يستعملها النورسي لتصوير الموت والقبر تكون سلبية بادئ ذي بدء ثم تتحول حسب قلوب الأشخاص. فالكتب القديمة التي تناولت مبحث الموت واليوم الآخر وما إلى ذلك من أمور تراها في

أغلبيتها تصف القبر كمكان مظلم، موحش ، تملؤه الثعابين والعقارب أعد هكذا لمن لا إيمان له. والنورسي مع أنه يصرّ بأن هذه المناظر المخيفة لن تبدو بهذا الشكل المرعب إلا في أعين الذي لا إيمان له، لا يغفل عن حقيقة الموت التي شغلت الفكر الديني طوال التاريخ ولا يحس بنفسه محميا من أهوالها، وهذه الميزة سمحت له بأن يتكلم فيها بصفة جد مؤثرة.

وكنموذج على الأسلوب التي اتّسمت به كتب التراث التي تبحث في الموت وأطوارها اخترنا أن ندرج هنا فقرة من "كتاب الروح" الذي مازال موثوقا به في أوساط أهل السنة والجماعة، خاصة في المسائل التي تبحث في حياة الروح بعد موت الجسد. يقول ابن القيم الجوزية : "لما خلق الله الموت، أمر الملائكة الآخرين أن يقفوا جانبا وينظروا إليه... ومن شدة الدهشة التي أصابتهم لما رأوا ملك الموت باسطا جناحيه وهو يطير أغمي عليهم لمدة سنة ". يرمز النورسي إلى الموت لا كمخلوق ذات أجنحة، ولكن كفاه غول أو مأوى وحوش، ذا مخالب وبراثن. ورمز النورسي إلى الموت بهذه الصورة السلبية، لا ينفي أنّه كان يعتبرها فعلا كالولي الحميم، هذا لأن القرآن يبدد هذه المخاوف ويبين بكل وضوح "بأن هذه الرحلة البرزخية التي تبدو شاقة، ومرعبة في ظاهرها، هي في الحقيقة من أجمل وأروع وأشيق الرحلات". فصورة الثعبان الذي يستعملها النورسي ليرمز إلى الموت وإلى قبر، تنقلب إلى "باب مفتوح على مصراعيه من سجن الدنيا إلى بساتين الرحمة وبساتين البقاء". أما بالنسبة لاؤلئك الذين يعصون أوامر الله يصبح القبر وكأنه "سجن انفرادي، ضيقا، ضيق معدة الثعبان".

إن كلمة البرزخ التي نلاحظ استعمالها في رسائل النورهي في الحقيقة مفردة قرآنية. ومن المعاني التي تفيدها سورة 100: 23 من القرآن هو عدم إمكانية الموتى من الرجوع إلى الأرض لوجود حاجز برزخ بين عالمهم والأرض إلى يوم الحشر والحساب.

ومفهوم الحاجز لم يصبح يقصد به الحاجز المكاني فقط بل الزماني أيضا. فالكتب الحديثة بما فيها القديمة التي انصبت على هذا الموضوع تصرّ بأن البرزخ يدل على الزمان الذي يقضيه الأشخاص منذ دخولهم القبر إلى يوم الحشر والمكان الذين يقضون فيه ذلك الزمان. وللنورسي تفاصيل قليلة حول البرزخ، بيد أنه يؤكد أن البرزخ فرحة بالنسبة للمؤمن، ومعاناة بالنسبة لفاقد الإيمان.

وفي الحقيقة ليست التفاصيل التي نجدها حول البرزخ في كتب التراث بكثيرة، إذا ما قارناها بالحجم الذي تعطيه حول أحوال القبر وعذابه، معتمدة في ذلك على سور عديدة

من القرآن ، كان يتبنّاها علماء الكلام من باب الترغيب والترهيب ومن أجل إشعار الإنسان بأن لا سبيل له في التأثير على مستقبله وعقباه إلا من نافذة هذه الحياة. ولا شك أن النورسي لا ينكر هذا البعد بل يتوافق معه.

نجد في رسائل النور استخدام حيوانات أخرى للتمثيل عن أطوار الحياة والموت، لكنها لا ترمز مباشرة إلى الموت والقبر، وليست سلبية الصورة مثل ما هو الحال بالنسبة للوحوش أو الثعابين. كمثال نموذجي على هذا الصنف الأخير نشير إلى ما يلي . يقول النورسي في حق الذين يموتون وهم يؤدّون أوامر الله، أو الذين يموتون في ظروف مفجعة بأن هؤلاء يشبهون الشاة التي تذبح يوم العيد، أو إلى البراق الذي تمطاه محمد (صلى الله عليه وسلم). فالشاة ترزق وجودا جسديا جزاء وفائها، وأما البراق فيروى أنه يصبح مطية المؤمن، يمتطيه ليعبر به على جسر الصراط يوم القيامة. بهذا التمثيل يفيد النورسي بأن الذي يموت وهو مراع حقوق الله، سوف يجزى من خزينة الرحمن كما تجزى الحيوانات المأمورة والذبائح. و للنورسي في هذا السياق تصويرات وموازنات لطيفة بين الحشرات أيضا. يقول النورسي عند مقارنته اليراعة بالنحلة. "فهذه تعوّل على ضوئها الضئيل وهي تطير في ظلام ليل لا حد له والأخرى توكلت على ضوء الشمس في النهار فترى كل رفيقاتها...". ومفاد هذا التمثيل أن الإنسان الذي يتوكل على نفسه المشؤومة متناسيا الله، يشبه حاله حال اليراعة، وأن الذين يبذلون وجودهم الفاني في سبيل الله الذي خلق كل شيء فهؤلاء سوف يهتدون إلى النور الذي لا نهاية له.

**التمثيلات بالسجن وحالات الإعدام:**

من جملة التمثيلات التي ترمز إلى الموت والقبر ولو بطريقة غير مباشرة هي تلك التي ترمز إلى هذه الحقائق من خلال أحوال السجن التي يعيشها المرء المحكوم عليه بالإعدام. ومما لا شك فيه أن النورسي نظرا لدخوله السجن عدة مرات كان على دراية وإلمام بهذه الأحوال. إن جهاد النورسي من أجل تنوير تركيا بنور الإسلام، جعله يتصدى إلى الحكومة لأنه كان يرى بأن معارضة دين الإسلام والتخلي عنه معاملة قاسية لا تستحقها الملة التركية. لقد عمل النورسي كل ما في وسعه لإقناع أصحاب الحكم بأنه لا سبيل لإنقاذ الشعب وتخليصه ما عدا سبيل القرآن وهديه، محتجّا أن تعلق الملة التركية بالدين قديم وقوي لا يصح قطعه. وكان يدعوهم أن يحترموا على الأقل العلمانية التي تبنوها، لأن العلمانية لا تتدخل في علاقات الفرد بربه إذ ليس هذا من شأنها أصلا، فكيف إذا تجعل العمل بالدين أمرا محظورا؟ رغم هذه الإلتماسات، والدعوات للرجوع إلى الرشد

والإنصاف فإن الحكومة آنذاك لم تستبعد أن يكون لتعاليم النورسي ونشاطاته، أبعاد سياسية تهدف إلى تحطيم النظام العلماني التركي. ومن جراء هذه الريوب والشكوك، سجن كثيرا ووقف أمام المحاكم متهما بتلك التهم في مناسبات عديدة.

كانت ظروف السجن التي عاشها النورسي في بعض الأحيان سيئة للغاية، فمرات حكم عليه بالسجن الإنفرادي في الوقت الذي كان يحتاج إلى من يعينه ومرات حكم عليه بالإعدام وهو ينتظر تنفيذ ذلك الحكم في زنزانته فريدا.

ونظرا لتجربة النورسي الطويلة في السجون وإلمامه بمشقاتها، تمكّن بقوة مخيلته أن يصور لنا بصفة جلية أحوال فاقدي الإيمان في أخريات حياتهم. ويجدر بنا أن نشير هنا، بأن النورسي يستخدم بعض هذه الصور أو الرموز من أجل إظهار أوجه التباين بين هذا العالم الذي نحن فيه وعالم الآخرة. وهذا يحدث بالخصوص عند وصفه للدنيا بالسجن في صورة ما إذا قارناها برحاب العالم الأخروي الواسع.

يقول النورسي أن المؤمن بنور إيمانه لا يرى الموت إعداما، بل يراه كمعبر إلى عالم الأنوار. وأما هذا العالم فبينما تراه براقا جذابا مشعشعا، ما هو في الحقيقة إلا سجنا عندما تقيسه بالعالم الذي ينتظرنا في الآخرة. وهذا التفريق ينبثق تماما من تعاليم القرآن، الذي يبلغ صراحة بأن الدنيا والآخرة شتان لا يستويان عند الله، فليس من إيمان المرء أن يستحب الدنيا عن الآخرة وإلا سوف يذوق وبال أمره لا شك.

يشبّه النورسي الموت في مجلد المكتوبات "بالتسريح من ضيق سجن الدنيا المكدر والمضطرب". إن السجن في تأليفات النورسي يرمز إلى الدنيا الخلابة وإلى القبر أيضا. فالقبر ليس معبرا من سجن الدنيا الفانية إلى رحاب بساتين البقاء فحسب، بل هو كذلك سجن لأهل الضلالة. لذا تراه يقول "إن القبر سجن انفرادي أبدي (لأهل الضلالة) يعزلون فيه عن كل أحبائهم". ثم إنا نلاحظ في مواقع عديدة كيف أن النورسي يتكلم عن الموت والقبر مستعملا رمز المشانق. يؤكد النورسي لقرائه بأن أجل الموت مخفي لا يعلمه إلا الله مصداقا للآية 6:2، 7:34، 16:61 و20:129 من القرآن مضيفا بأن في خفاء هذا الأجل حكمة ورحمة، فلو اطلع الإنسان أو المجتمعات على ساعة الأجل لقضوا نصف حياتهم الأول في اللهو واللعب والنصف الثاني في خوف شديد، إذ يرون حينئذ أن كل لحظة تمر عليهم في هذه الدنيا، هي بمثابة خطوة نحو المشانق المنصوبة أمامهم، الشيء الذي يزيد من دون شك في حدة ألم الموت مئات الأضعاف. يصف النورسي الموت ، والقبر في الشعاعات "بالمشانق المنصوبة لشنق الإنسان، وكل رفقائه وأقاربه". وفي اللمعات يوجه إنذارا شديدا لاؤلئك الذين يسميهم

بالفوضويين بأنهم سوف "يصعدون مشانق الموت والإعدام الأبدي" وسوف يرون كيف ستنقلب ملذاتهم السريعة الزوال إلى آلام في دار الخلود. فبديهي إذا أن هذه التمثيلات السلبية تخص الذين لا إيمان لهم ونحن كنّا قد رأينا كيف أن هذه الرموز نفسها تحمل معاني أخرى بالنسبة للمؤمنين. يقول النورسي للذين يشكّون في الآخرة من أهل الضلالة (الشعاعات) "لقد أصبح المستقبل بسبب كفركم عدما مظلما مهجورا كالأرض القاحلة، فترون أنفسكم كالذين أتوا إلى هذا العالم ليقطع رأسهم بسيف الأجل ثمّ يقذفون أخيرا في حكم العدم".

لندرج الآن في هذا الصنف الذي تناول مباحث السجن والموت والعدم هذه الفقرة من "المكتوبات" يرمز فيها النورسي إلى موته بهذه العبارات القوية:

"يا أيها الأشقياء الذين يبيعون دينهم وحياتهم في سوق هذه الدنيا! إذا كنتم تريدون هذا فافعلوا لكن تخلّو عني، وإلا فإني سأسأل الله أن يجعل مماتي يخدم الدّين أكثر من حياتي وأن يجعل موتي ينفجر على رؤوسكم كالقنبلة تشتتكم تشتيتا."

**التصويرات المكانية:**

بينما يغلب على الرمز بالسجن والحيوانات الطابع السلبي، فإننا نجد بأن التمثيلات التي تستخدم المكان إيجابية لأنها تستعمل لإخطار أصحاب الإيمان بالمكان الذي ينتهي إليه سفرهم بعد مغادرة هذه الأرض وهذه الدنيا. فكثيرا ما يشبّه الموت والقبر إلى تغيير عنوان أو تغيير سكن. ويشبّه النورسي الموت في بعض الأحيان بالباب الذي يسمح للمؤمنين بالعبور من هذا الوجود إلى وجود آخر. وليؤكد النورسي على إيجابية الموت بالنسبة للمؤمنين تراه يصر في مختلف المواقع بأن الموت ليس إتلاف، أو عدم، أو لا وجود، أو زوال أو انقراض، أو فراق أبدي، ولا هو عمل الصدفة أو محو من دون إذن "الكاتب". بالعكس فما الموت إلا باب يفتح على عالم آخر، يسمح للمتوفي أن يلتقي مع تسع وتسعين بالمئة من أحبابه الموجودين هناك! فنور الإيمان الذي يجول وينفذ في كل أطراف الكون يجعل المؤمن يفتح أبواب الآخرة ويغلق باب الدنيا بنفس السهولة التي يفتح ويغلق بها أبواب بيته. فالموت إذا باب إلى عالم أحسن من هذه الدنيا "يطل على بساتين منورة".

ومما يكثر استخدامه في كتاب الكلمات هو صورة الجسر التي يستعملها النورسي ليرمز إلى الحياة وكذلك الموت. يذكّرنا تصويره للجسر بالصراط كما هو موصوف في الكتب التي بحثت في الموضوع، إذ يشبّه الحياة بالجسر" إما ضيقا ومثيرا للمخاوف، وإما عريضا عرض الطريق". ومن هذين المنظورين المختلفين يصف لنا النورسي الموت والحياة

بتصويرات جد حية وجد مؤثرة.

من نعم الله التي لا تحصى هي تلك البشرى التي يزفّها القرآن للمؤمنين في حقّ الموت، إذ يبين ذلك الكتاب الكريم أن الموت والأجل ما هما إلا جسر يمهّد السبيل إلى العالم الآخر، يعبر منه المؤمنون كي يجتمعوا مرة أخرى مع الأحباب. وإصرار النورسي على هذه النعمة، أي نعمة الإجتماع مع الأحباب والأقارب مشهورة في التراث وهي لا شك دليل على قوة هذه العلاقات بالنسبة للإنسان.

فكثيرا ما تجد في كتب التراث والكتب الحديثة التي بحثت هذه الأمور ما يفيد بأن الأموات عندما ينتقلون إلى العالم الآخر، سيلتقون هناك بأرواح الذين ماتوا من قبلهم، وأن هؤلاء سوف يسألونهم عن أخبار أفراد عائلاتهم الذين بقوا في الأرض.

يمكننا أن نعثر في الرسائل على مجموعة أخرى من الرموز المكانية، تتعلق بالأرض أو هذه الدنيا، يستخدمها النورسي ليعظ الذين بدأوا يخلدون إلى الأرض و نسوا بأن دار الدنيا عابرة ومعرّضة للزوال في كل لحظة. يشبّه النورسي حال الدنيا العابر والزائل إلى حركة الفصول: "وكأن هذا العالم، منزل مسافرين تسكنه الكائنات لبرهة من الزمن، يفرغونه بسرعة لكي يدعوا المجال لقافلة أخرى تنزل في محلّهم، وهكذا دواليك الكلّ يأتي لأداء وظائفه ثم ينتقل إلى مكان آخر بمجرد انتهائها". و يشير النورسي إلى حقيقة الدنيا في مكان آخر، لّما كان يشرح لنا تجربته في السجن: "هذه الدنيا كمثل دار ضيافة مؤقتة أعدت للمسافرين، تملأ وتفرغ في كل حين"، فما وجه الأرض إذا "إلا كمنزل تتوقف فيه قوافل المسافرين لتبيت فيه ليلة قبل أن تستأنف سفرها الطويل".

وفي هذه المجموعة التي سميناها بالرموز المكانية، ندرج تصويرا عجيبا، حاول النورسي من خلاله وصف الإنسان في نظر سكان السموات (الملائكة). يقول النورسي أن الإنسان من هذا المنظور " كمسجد نقال، ودولاب غزل لخيوط الزمان، وكذا هو منزل عال. نعم! إن كل فرد من أفراد بني آدم ضوء منير، وسفينة عظيمة، ذلك أن كل واحد منهم معجزة من معجزات قدرة القدير ذو الجلال و الكمال".

**التمثيل بالوظيفة، والأجرة والمعاملات التجارية:**

كثيرا ما يرمز النورسي إلى الموت بورقة تسريح أو إعفاء من خدمات الدنيا أو من جوانب الموت السلبية، ذلك أن الموت بالنسبة للمؤمنين، ومصداقا لما أتى به القرآن، تسريح من الخدمة وإعفاء من العدم الأبدي. يقول النورسي: "فما الموت إلا رخصة تسريح تسمح (للمؤمن) أن ينتقل من هذا العالم إلى قصور الرحمة في عالم الأبد". فكما أن الموت إعفاء من مسؤولية العبادة، كذلك هي تمثّل الآونة التي يحصل فيها المؤمنون

والمؤمنات على الأجرة والمكافأة جزاء العمل الصالح في دار الدنيا. والله هو الذي يجزي على هذه الأعمال لأنه صاحب "سفينة وجود كل شخص". يقول النورسي بأن السفينة ملك الله وأن وظيفة ومسؤولية الإنسان فيها تنحصر في توجيه دفة تلك السفينة فإن كان الإنسان قد أدّى هذه الخدمة على وجه حسن، فسوف يمنح مقابل خدمته أجرة عالية وهدايا نفيسة من خزينة صاحب السفينة المعروف بكرمه وجوده.

وفي سياق التمثيل بالأجرة والمكافأة، يقول النورسي في المكتوبات "بأن القدير ذو الجلال يحفظ من الحبّ والنّوى صحائفها التي تسجل فيها أعمال هذا الربيع وصنيدقاتها التي تودع فيها خدماتها ريثما يأتي الربيع الآتي، فإذا جاء هذا ينشرها كرّة أخرى بصورة خارقة".

جاء هذا الطرز من التمثيل أيضا في اللمعات، وفي رسالة المرضى بوجه خاص. كان هدف النورسي في تلك الرسالة التخفيف من القلق والضجر الذي يصيب المرضى، ومساعدة هؤلاء على التحلّي بالصبر الجميل. فلكي يعرض عليهم الداء في صورة دواء وبشرى، شبّه النورسي الحياة برأس المال الذي يمكن هدره بسرعة إن لم يستثمر. ثم أشار أن المرض في الحقيقة ما هو إلا وسيلة لحفظ هذا المال بل هو وسيلة ربح على رأس المال لما يعود بالحسنات على صاحبه الصابر.

ومن التمثيلات المالية البارزة، هي تلك التي يستخدم فيها النورسي لعبة قمار اليانصيب ليرمز أن ساعة الموت بالنسبة للمؤمن تشابه يوم تحصيل الربح وسحبه. يقول النورسي أن كل من اختار طريقا مستقيما في هذه الحياة، فكأنما سحب "تذكرة تساوي كنزا أبديا لا يفنى". ولو تمعّنا كتاب الكلمات، خاصة الصغيرة منها لوجدنا أمثلة جد لطيفة لهذا الإستخدام، نورد منها على سبيل المثال الفقرة الآتية. يقول النورسي:

"إن باب القبر في أعين المؤمنين باب يفتح على كنوز وسعادة لا تفنى. وكيف لا وفي أيديهم قسيمة الإيمان، تلك التذكرة المسحوبة من قدر "يا نصيب" الأزلية، قيمتها قناطير من الذهب والماس. لذا ترى المؤمنون يتشوقون إلى سماع صوت المنادي: "تعالوا إسحبوا تذكرتكم" لأن في ذلك النداء إخطار بلذائذ غير هذه اللذات وانشراح للروح لا مثيل له.

يجدر أن نشير هنا بأن النورسي رغم أنه لم يأت بمجاز اليانصيب من القرآن إلا أنه لم يخرج في استخدامه لهذا المجاز عن نطاق الكتاب العزيز وصلبه لدلالة هذا الرمز (اليانصيب) في كتابه على النعم الكثيرة التي أعدها الله للمؤمنين.

هناك تمثيلات أخرى عند النورسي يمكن تسميتها **بالتمثيلات العسكرية**. يقول النورسي في الشعاعات وهو يصف أحوال الحشر: "فمثلما ترى الجنود المحجوزين في

الثكنات يسرعون لأخذ أسلحتهم ومواقعهم حين يكلّفهم القائد بالحضـــور الفـــوري كذلك بمجرد سماعهم البوق يحضر الأموات من ثكنات السموات والأرض كالعســـكر طائعين، فيرتدون أزياء أجسادهم ثم يقفون صفا صفا أمام نظر ملك الأزل والأبد".

**تمثيلات متنوعة:**

ليس هناك أي مؤشّر أن النورسي اقترح يوما أن تصنّف تمثيلاته وتعبيراته المجازية على الوجه الذي نحن نقوم به هنا، لكن لا يراودنا شك بأن هذه التمثيلات والتعبيرات المجازية توحي إلى تلك التجارب المختلفة التي مرّ بها النورسي في حياته الخاصة، سواء تعلق الأمر بالمرض، أو الموت، أو السجن أو الإهتداء إلى الطريق المستقيم والفوز بالثمرات الخالدة. فليس كل أوجه التمثيل عند النورسي تدخل في التصنيفات التي أقمناها في هذه الورقة، لكنها كلها تحمّل اللوحات الفنية التي يرسمها وتساعد القارئ على فهم براهينه. وعليـــه تجد في تمثيلات النورسي ما يتعلق بالحياة اليومية والأشياء أو الأدوات الـــتي يســـتعملها الإنسان كل يوم. فمثلا يرمز إلى بعض الحقائق بالمرآة.

خلق الإنسان ،حسب قول النورسي، ليكون مرآة جامعة لتأدية عبودية كلية، ومادام هو موضع هذا الإنعكاس فهو يتغير مئات آلاف المرات كما تتغير الصور المنعكســـة في المرآة. وهذا الإنسان المرآتي لن يموت بإذن الله القيوم بل سيبقى بإذن البـــاقي الـــذي لا يرضى بزوال من كان موضوع انعكاس جماله طوال حياته. وعلى هذا عنـــدما يرجـــع النورسي إلى موضوع الأقارب والأحباب الذين غادروا هذا العالم، يؤكد لقرائه بأنه لا فراق في الحقيقة بينهم وبين هؤلاء، لأن موتى المؤمنين رغم أنهم غادروا هذا العـــالم لا يفقدون مرآتيتهم تماما، ولا يسلبهم الموت من قابليتهم انعكاس ذلك الجمـــال. ومـــن الأدوات اليومية الأخرى التي يستخدمها النورسي في تمثيلاته، الساعة الكبيرة أو ســـاعة اليد. فكما أن الساعة التي حول معصم اليد تبدو مستقرة، رغم أنها متحركـــة باعتبـــار عملية دواليبها وأجزائها المختلفة، كذلك العالم (الذي يسميه النورسي بساعة القـــدرة الربانية) في تحرك دائم "معرّض للانقلاب، والتغيّر والزوال السريع في كل حين".

فعقارب الليل والنهار تعدان ثواني تلك الساعة الكبرى، كما تعد عقارب السنوات دقائقها والعصور ساعاتها. بينما نجد أيضا تمثيلات تستخدم أدوات ميكانكيـــة مألوفـــة بالنسبة لقراء النورسي ومعاصريه بالأخص.

يقول النورسي بأن لأموات المؤمنين بصيرة تسمح لهم بأن يتطلعوا على الجنان وهـــم في قبورهم كأنهم في حوزة منظار فلكي، وفي مكان آخر يضيف بأنه يمكن للمؤمنين أن

يشاهدوا هذه الجنان كالمتفرج على شاشة السينما، كل حسب اســتعداده وقابلياتــه. وعندما أراد النورسي أن يكشف لنا عن تخوفاته من الموت، قال بأنه يــرى المقــبرة في بعض الأحيان وكأنها شاشة سينما يتحرك فيها أشباح الموتى. كانت حالة النورســي الصحية، بالإضافة إلى سنه المتقدم أمران يشغلان باله دوما في أخريات عمــره. يقــول النورسي وهو يتأمّل في حالة شيخوخته: "مثلما انقلب اليوم إلى هــذا المــزار المظلــم، وارتدى العالم هذا اللباس الأسود، كذلك سوف ينقلب نهار دنياك ليلا وسوف ينقلب نهار الدنيا إلى عالم الآخرة وينقلب صيف الحياة إلى شتاء الموت". يغلب على النورســي حينما يعبر عن سرعة زوال الدنيا استخدام الصور التي توحي إلى سرعة جريان الأنهــار وفوران المياه ومن ثمة استعمال رمز الحباب، ذلك أن من خاصية هذا الأخــير اللمعــان والعاكسية لنور الشمس وهو يجري على سطح النهر، ثم الزوال والإنطفاء الواحد تلــو الآخر من أجل الإلتحاق بمن سبقه من جنسه وإفراغ المكان لمن يحل محله. فكما أن هذه الحالة تدل على شمس عالية دائمة، كذلك تعاقب الليل والنهار وسيلان الكائنات الدائم يدل على أزلية وسرمدية الباقي، الحي الذي لا يموت.

**النوم والموت:**

تكلم النورسي عن الموت مستخدما حالة النوم كمجاز. شأنه في هذا شأن المفكرين المسلمين الذين انصبوا على هذا الموضوع لما رأوا من تجانس وتناسب بين تلك الحالتين. ولا شك أن السورة 42:39 والسورة 60:6 من القرآن كانتا الأساس الذي بنيــت عليه هذه النظرة وهذا الإهتمام. وآراء المتكلمين والمفسرين لم تقتصر على القول بالتشابه والمماثلة بين حالة الموت والنوم بل ذهب بعضهم ليصر بعلاقة التطابق بينهما. ويجب أن ننبه هنا بأنه في الوقت الذي كان المفسرون الأولون يهتمون بهذه الآيات من أجل التدبر في الفروق وأوجه المماثلة بين النفس والروح التي تمثل الجانب غــير المــادي في بنيــة الإنسان، فإن المفسرين الأواخر اهتموا بالعلاقة بين الموت والنوم لما رأوا فيها من برهان على مجيء الحشر: لأن استيقاظنا من النوم (الموت الصغرى) يشير حســب هــؤلاء إلى حقيقة استيقاظنا من سبات القبر يوم الحشر. علاوة على هذه الإهتمامات، فإنــا نجــد كتابات شعبية كثيرة تبحث في إمكانية المكالمة والمقابلة بين الأحياء والأموات. يمكــن لقارئ رسائل النور أن يعثر على ما يشابه كل هذه التأملات حول الموت والنوم. يقول النورسي في "الكلمات" بأن وقت الدخول في النوم يشابه سكرات الموت الأخيرة وهــو يمثل فرصة للإطلاع على نشاط النهار من زاوية أخرى، كما أنه يمثل فرصــة لارتخــاء

القيود التي تربطنا بالدنيا. "...إن الإنسان عند أدائه لصلاة العشاء... يلتجئ إلى باب من هو المعبود الذي لم يزل ومن هو المحبوب الذي لا يزال، مناجيا ذلك الباقي السرمدي في هذه الدنيا الفانية، وفي هذا العالم الفاني، وفي هذه الحياة المظلمة والمستقبل المظلم، لينشر على أرجاء دنياه النور من خلال صحبة خاطفة ومناجاة موقتة، ولينور مستقبله ويضمد جراح الزوال والفراق عما يحبه من أشياء وموجودات ومن أشخاص وأصدقاء وأحباب، بمشاهدة توجه رحمة الرحمن الرحيم، وطلب نور هدايته، فينسى-بدوره- تلك الدنيا التي أنسته، والتي اختفت وراء العشاء، فيسكب عبرات قلبه، ولوعة صدره، على عتبة بـــاب تلك الرحمة، ليقوم بوظيفة عبوديته النهائية قبل الدخول فيما هو مجهـــول العاقبـــة، ولا يعرف ما يفعل به بعده، من نوم شبيه بالموت، وليختم دفتر أعماله اليومية بحسن الخاتمة".

وفي باب الحديث عن أوجه التآخي والتجانس بين الموت والنوم يقول النورســـي في المكتوبات بأنه مثلما أن النوم راحة ورحمة كذلك الموت، الذي هو أخ النـــوم الكـــبير، رحمة وعناية خاصة لأولئك المصابين بالأمراض والبلايا الشديدة.

يلحق النورسي بالمتكلمين والمفسرين الذين رأوا في أوجه العلاقة بين الموت والنـــوم حجة على الحشر، إذ يقول بأنه يستحيل على الله الذي تفضّل على بني آدم بكل هـــذه الهدايا، أن يترك الإنسان سدى، نائما في قبره من دون أن يوقظه مرة أخرى.

"إنك لو تدبرت في الأشياء، في الليل والنهار، وفي الشتاء والصـــيف، والتقلبـــات والتغيرات في السماوات وحتى في تلك التي تحدث في شخصية الإنسان وفي جسده الذي يلبسه جديدا عدة مرات، ولو تأملت في النوم الذي يوحي إلى الموت، والإستيقاظ منـــه الذي يوحي إلى الحشر، لتيقنت أن كلا من هذه الأحوال يشـــير إلى حقيقـــة القيامـــة الكبرى". (بتصرف)

**الخاتمة:**

هكذا نكون قد عرضنا بعض التمثيلات وبعض أوجه المجاز التي استخدمها النورسي لينذر قرائه ويحذرهم من عدم التقاعس للإستيجاب إلى نداء الحق ونداء الإيمان ويأخـــذ بساعد الذين مشوا في الطريق المستقيم خاصة منهم المرضى أو الذين هم علـــى بـــاب الموت. وعليه فإن تمثيلات النورسي كما أشرنا إليه في بداية الورقة ليست "وصفا" بمعنى الكلمة بل وعظا ناجما من تجارب حدسية حول حقيقة الموت وما بعدها ونحن في الدنيا. لاحظنا أن هذه التمثيلات وهذه التعابير المجازية تستخدم كلا من الكائنات الحية، مثـــل الفرس، والأسد، واليراعة والنحل، والجمادات التي نجدها في كل بيت من البيوت، مثل

المرآة والباب والساعة. ووجدنا أن بعض هذه التمثيلات تعكس حياة النورسي الشخصية والمحن التي مرت عليه. تأكد لنا هذا عندما بحثنا استخدامه لرمز المشنقة، والزنزانة، وسيف المنفذ لحكم الإعدام. كما عثرنا على تمثيلات من الحياة اليومية يسهل فهمها على الكل وهذه تتمثل في عبارة: سجل الأعمال، أوراق الإعفاء، منزل المسافرين، والجسر. ورغم أن جل هذه التمثيلات لا يطرأ عليها تأثير الزمان والمكان، إلا أن البعض منها وخاصة تلك التي تستخدم المنظار الفلكي، أو السينما، أو اليانصيب فإنها تعكس هذا العصر بشكل خاص.

ونخلص إلى أن هذه التمثيلات باختلاف أنواعها وأساليبها تجعلنا نشعر بقوة القضية التي اتخذها النورسي محورا لوعظه. نعم، إن الإنسان مسؤول عن اختياراته وبالتالي عن مصيره، فليس له في هذه الحياة وقت يضيعه بل يجب عليه أن يحول كل دقائق وساعات يومه للتحضير إلى يوم الرحيل من هذه الدنيا إلى عالم الآخرة ومن هذا المكان المؤقت إلى ذلك العالم الأبدي. لقد كان النورسي يجد الشفاء لكل العلل والسلوان لكل الهموم خاصة الموت في القرآن ورحابه، فكتب كثيرا من الرسائل من أجل أن يبلغ أصحاب الإيمان وأهل القرآن بالبشرى إذ كان يشاهد بنور إيمانه بأن الموت فوز للذين آمنوا وعملوا الصالحات.

**ترجمة: رضا عامر**